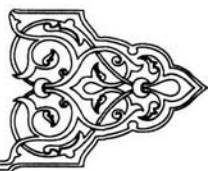


عيسى يفرق عيسى يوحد



«لا يرضى كل إنسان بمقولة: إن الطريق هو الهدف»

(ألويس براندرتر).

- ١ -

دعنا نتأمل أحدث الكتب عن «تاريخ الله» لكارين أرمسترونج، وهو يستعرض قصة الإيمان التي ترجع إلى حوالى ٤٠٠٠ عام، متناولاً إله إبراهيم وإله آينشتين وچاك ميلز. يميل الكتاب إلى الرأى القائل بوجود تصورات مختلفة عن الإله بقدر اختلاف اليهود والمسيحيين والمسلمين. وإذا كان هذا أمر صورة الإله، فإن الأمر لا يختلف كثيرًا بخصوص تعدد صور المسيح. ولذلك، فمن المحتمل أن يكون عيسى الذى يوحد الناس غير عيسى الذى يفرقهم، فقد ظهرت على مر التاريخ ثلاث صور مختلفة لعيسى:

١- كان عيسى يهوديًا مارقًا مجددًا حين عدَّ نفسه بغير حق المسيح المخلص (المفهوم اليهودى).

٢- إن عيسى إله وإنسان فى الوقت نفسه (مفهوم التجسيد الذى تبناه الكنيسة الكاثوليكية والكنائس المسيحية).

٣- إن عيسى نبي ورسول يهودى مصلح (المفهوم الإسلامى).

عاش فى الغرب حتى مائة عام مضت أناس رفضوا بشكل فردى الرؤية المسيحية للمسيح وللدين من أمثال جوته وغيره، ولكن لم يشكل هؤلاء الأفراد حركة تمرد علنية منظمة معارضة لما تروجه الكنيسة من عقيدة.

لقد بدأت حركة التمرد هذه فى الظهور فى القرن التاسع عشر من خلال محاولة إجراء مراجعة نقدية تاريخية للمصادر المكتوبة التى تستمد منها المسيحية تعاليمها، ولقد قام بهذه الحركة لاهوتيون، وكان لها نتائجها المدمرة. وأذكر فى هذا الصدد أساء بعض أساتذة علم اللاهوت من الكاثوليك والبروتستانت مثل هانز كامبنهاوزن، رودولف بولتمان، أدولف هارناك، چون هيك، إيمانويل هيرش، هانز كونج، جيرد لودمان، پول تيليش، كارل رانر، أدولف شلاتر، هانز يواكيم شويس، ويلفريد كانتويل سميث، ولقهارت بانينبرج.

لم تشارك الجموع المسيحية في هذه العملية، خاصة أن عملية المراجعة هذه قد حرصت الكنيسة على حجبها عن الجماهير والتكتم على أمرها.

كان العهد الجديد كنص تاريخي أول ضحايا عملية نقد المصادر هذه. لقد قام بولتمان باتباع المنهج التاريخي النقدي المعمول به في الأدب في تحليله وتناوله للنص المقدس. وهكذا قام بتفسير «علاقة رسالة المسيح الأصلية بالشخصية التاريخية لعيسى». ولقد سار في تحليله إلى أقصى مدى، وتوصل إلى استحالة القيام بعملية كتابة صحيحة لتاريخ عيسى للظروف المحيطة بنشأة الأناجيل. لا يوجد رغم المجهودات المضنية مصدر أساسى، لا يوجد «إنجيل عيسى»^(١).

لقد توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن النصوص السبعة والعشرين التى يتضمنها العهد الجديد ليست حقيقية أو واقعية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، أى أن يكون كاتبها معروفاً وأن يكون معاصراً لعيسى. ليس لدينا سوى روايات مصدرها الغرباء عن عيسى، ولكن هذه الروايات ليست مروية أو مكتوبة باللغة الأم، أى باللغة الآرامية، وليست صادرة عن شهود عيان، فكيف يتسنى لنا أن نعلم بما كان يريد أو يعنيه إن لم نكن حتى نعلم ماذا قال؟.

لذلك لم يستطع الكثيرون نفى حقيقة أن نشأة النصوص المسيحية المقدسة لا تعود إلى أحداث تاريخية بقدر ما تعود في حقيقة الأمر إلى غيرها من الشئون. وهذا يعنى: أننا نعلم علم اليقين التأثيرات التى أحدثتها الظاهرة «عيسى»، ولكننا لا نعلم صاحب هذه الظاهرة والتجربة: «عيسى». فعيسى ليس مؤسس الدين المسيحى بقدر ما هو موضوع هذا الإيمان والدين، أى عيسى هو هذا «المجهول العظيم»^(٢). يقول لودمان: «إننى لا أؤمن - إذن - بالكتاب المقدس ككلمة الله لنا، ولكن أؤمن بعيسى الذى يقف خلف نصوص العهد الجديد تخنقه التقاليد الكنسية المتركمة»^(٣).

لقد توصل كثير من الباحثين إلى استحالة إمكانية الحديث عن وحدة العهد الجديد وخلوه من التناقضات وصحته، بغض النظر عن مسألة كتابته. ويعتقد لودمان أن العهد الجديد هو اختيار الكنيسة للنصوص لتحقيق أهدافها، وهى مجموعة نصوص الجانب الفائق والفريق المنتصر. لقد تم تدوين هذه النصوص بعد أن اجتازت المسيحية بداياتها بزمان، وهى بالتالى ليست كلمة الله، بل كلمة الإنسان.

(١) انظر: ماك (١٩٩٣).

(٢) دشنر (١٩٨٨) ص ٨٣.

(٣) لودمان (١٩٩٥) ص ٢٢٦.

ويعتقد لودمان أن «التدقيق التاريخي لنشأة العهد الجديد وما يحتويه من مقدسات، يؤدي إلى انهيار أبنية الكنيسة وعلم اللاهوت كما لو كان بناؤهما من ورق»^(٤).

ولقد عبر كثير من علماء اللاهوت عن استيائهم البالغ من تزوير بعض الوثائق الكاملة، مثل رسالة بولس الثانية، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، وكذلك جميع المواضع الخاصة بمسألة الثالث، ومن ضمن هذه المواضع: رسالة يوحنا الأولى (٥: ٧)، وأمر التعميد «باسم الأب والابن والروح القدس» (متى ٢٨: ١٩).

أصبح نقد العهد الجديد هماً وشاغلاً عظيمًا للباحثين في علم اللاهوت، حتى يتوصلوا إلى ما سبق عام ٣٢٥ ليتمكنوا من إعادة اكتشاف المسيحية الحقيقية ذات الأصول اليهودية. يعتقد جون هيك أحد أبرز نقاد هذه الدوجما وتعاليم الكنيسة - عن حق - أن مجرد مناقشة التجسيد والثالث قد سلبت الاثني قديسيتهما ومكانتهما حتى صار الاثنان مجرد نظرية. من المحتمل أن ينطبق هذا الأمر على الغرب. أما بالنسبة لكنائس الشرق الأرثوذكسية، فإن دوجما وتعاليم الثالث استطاعت أن تقف في وجه الزمن بشكل أفضل مما حدث في الغرب. وربما يعود ذلك إلى أن علماء اللاهوت الشرقيين طالما تعاملوا مع مسألة الثالث كلغز وسر في حد ذاته، بينما وقعت كنائس الغرب ضحية لمحاولتها تفسير هذه الدوجما بشكل عقلاني.

أما أكثر المواقف تطرفاً، فقد تبناها بعض علماء اللاهوت المسيحيين من أتباع پول تيليش مؤكدين رأيه أن عيسى رمز جميل، جميل لدرجة تجعل من الضروري اختلاقه إن لم يكن قد وجد فعلاً، حتى أن أمر الحقيقة التاريخية لعيسى تصبح غير ذات أهمية. فالإيمان والدين المسيحي ليسا بحاجة إلى تسويغ تاريخي، ولكن كما قال بولتمان إلى: «لقاء روحى مع المسيح». ويتشابه هذا القول مع رأى إكو: «بماذا يؤمن من لا إيمان له؟». ووفقاً لذلك، فإن المسيح حتى لو كان مجرد شخص في حكاية مؤلفة، فإن هذا التأليف رائع وشديد الجمال ويتسم بسحر وغموض يضاهي فكرة ابن الله الحقيقية.

يُعدّ كل ما سبق ذكره مجرد خطوات لتجديد ما قام به شلاير ماخر من قبل، وهو تحويل الدين إلى فلسفة جمالية. تتخلّى فلسفة الحياة هذه عن جميع مضامين الإيمان الموضوعية وتلقى بها خلف ظهرها لتصبح «دينًا بلا إله»؛ لأنّ ديننا ينحصر في إحساس الفرد الداخلى، ويرتفع عن الحياة والعالم الحقيقى، ويصبح كما قال جوته: «مسيحية لاستخدامى الخاص»^(٥).

فالدين إما أن يكون دينًا وإما لا يكون!

(٤) لودمان (١٩٩٥) ص ٨ و ٩ و ٢١٥.

(٥) جوته في «الشعر والحقيقة» فرانكنفورت ١٩٩٣، الجزء ٥ ص ٥٧٥.

وقام الأمريكي ماثيو فوكس، هذا القسيس الممتنى إلى جماعة الدومنيكان سابقاً، بإجراء تغيير في النموذج، فدعا إلى تغيير نموذج عيسى من عيسى التاريخي إلى عيسى الكوني^(٦). ولقد انزلق في محاولته هذه إلى فلسفة تتسم بمواصفات مرحلة ما بعد الحداثة، وملينة بالعناصر الغامضة والغنوصية.

ولكننا نتساءل: هل تملك صورة عيسى الكوني مقومات الحياة إذا هي تخلت عن صورة عيسى التاريخي؟ أو ليست صورة عيسى المتعالية على الحقيقة التاريخية وصحتها، هذه الصورة المختلفة، المفتعلة، أو ليست شفرة إضافية للحقيقة غير الملموسة؟.

هناك تلاعب لاهوتي أقل تطرفاً، بمقتضاه هناك بالفعل عيسى، كحدث وقع فعلاً: «Jesus - Event» كنواة تاريخية للمسيحية، وكل ما عدا ذلك، أى ما تبع ذلك من المسيحية ما هو إلا تأملات نظرية.

لقد كان عيسى أكثر من مجرد فكرة جميلة. لقد كان تجلياً مميزاً ووحياً في الشخص ذاته^(٧). ويقول كلاوس برجر إن الله الخفى قد أصبح «مرئياً ومنظوراً» من خلال «ظهور عيسى كإله، وشفافية تجلى الله من خلال عيسى ووجوده فيه»؛ لأن عيسى «نفاذ ومتخلل بشكل كامل في الوجود الإلهي، في وجوده هو»^(٨).

وبتعبير وصباغة كلمات مايكل ليلونج: «فإن الله قد تجلى بكامل وجوده في المسيح عيسى، وعَرَفَ نفسه فيه وظهر من خلاله»^(٩).

في المقولات السابق ذكرها، يفقد عيسى ألوهيته، ولكنه يُرفع إلى مكانة عالية، ويستمر السمو به إلى أن يكون مضموناً للتجلى والوحي. ولكن إذا تساءلنا ماذا إذا لم تكن هذه المقولات تلاعباً بالألفاظ، وتوابع لما حدث وقيل وصيغ في إزنك؟ ذلك لأن علماء اللاهوت الذين يتبنون فكرة «الحدث» لا بد وأن يقبلوا أن نعارضهم بالحقيقة التالية: إن بناء أفكار من نقطة لا نستطيع إثباتها تاريخياً ولكن نَعُدُّها جزافاً حدثاً وقع فعلاً، هو أمر كفيل بأن يزعج بنا في تأملات نظرية غير مجدية.

وهناك نظريات أخرى تتسم بصيغة عقلانية مما يزيد من فرص نجاحها وانتشارها على مستوى كنائس العالم. وضع هذه النظريات البريطاني جون هيك (برمنجهام) المسيحي

(٦) فوكس في kirste ص ٣٧٤، ٣٧٦.

(٧) كراج (١٩٨٦) ص ٥.

(٨) كلاوس برجر: «في البدء كان يوحنا» - دار نشر كويل، شتوتجارت، ١٩٩٧، نقلاً عن محادثات من خلال هلموت لور في FAZ بتاريخ ١٩٨٩ / ٦ / ٣.

(٩) ليلونج (١٩٨٦)، ص ١٦٠.

الأنجليكاني. لقد توصل هيك إلى أن عيسى إما أن يكون إنساناً فقط، وإما أنه لم يكن إنساناً على الإطلاق. واختار هيك بشكل مطلق أن يكون عيسى إنساناً فقط.

لقد رأى هيك أن عيسى كان إنساناً فقط اختاره الله ليحمل رسالته الإلهية، وأنه لم يكن معصوماً من الخطأ.

لقد تمثلت رسالته في أن يضيف إلى صورة الإله القاسية الموجودة في العهد القديم، صورة الإله المحب الرحيم، وأن يضيف على وصايا موسى وتعاليمه روحانية، وأن يضيف مساحة أكثر إنسانية على تشددات التلمود. ولقد عدَّ هيك عملية تأليه عيسى والتي جاءت زمنياً في وقت لاحق لحياته، وتحويل عيسى إلى الشخص الثاني في مسألة الثالوث الإلهي المقدس «طريقة أسطورية ورمزية للتعبير عن معنى وقيمة عيسى». لقد تحولت صورة عيسى «كابن للرب»، وهي كناية صاغها اليهود الموحدون، إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية الإغريق في تعدد الآلهة وعلاقة الإله الأب بأبنائه^(١٠).

ترتكز نظرية هيك التي تدعو إلى إلغاء ونفى فكرة التجسيد إلى حقيقة أن عيسى نفسه لم يتحدث في أي لحظة عن نفسه كإله أو عن ثالوث إلهي. تتمركز رؤية هيك الشاملة على عيسى أكثر منها على الإله، ولكنه لا يجزم إن كان وقوع حدث المسيح هذا فريداً أو أنه سيطر كذلك. فيقول: «إننا لم نعد نتحدث عن نقطة تقاطع بين الإلهي والإنساني، هذا التقاطع الذي حدث في حالة واحدة فقط هي عيسى»^(١١). ويختلف موقف عالمي اللاهوت الكاثوليكين رانر، وكونج عن هيك، فكلاهما لا يرفض الحجج التي تساق لرفض فكرة الثالوث الإلهي متضمنة عيسى كشخص إلهي داخل هذا الثالوث، ولكنها يجتهدان في إعطاء عيسى مكانة الصدارة التي تحميه من أن يكون مجرد رسول مثل باقي الرسل. أي أن كليهما يعترض على فكرة الآلهة، والتي يتضمنها منطق فكرة التجسيد.

ولقد توصل رانر من خلال إعادة التفكير في تعاليم التجسيد إلى تعريف آدمية وإنسانية عيسى الحقيقية، حين قال: «إن من يقول إن عيسى هو الإنسان الذي يعيش حالة تسليم الذات لله بشكلها المطلق، يمكنه بهذا القول أن يعبر عن حقيقة جوهر المسيح في عمقها بشكل صحيح». ويعتقد رانر أن «التجسيد» الإلهي في الحياة الإنسانية إنما هو احتمال عام، ويكون عيسى بهذا المثال الكامل والأوحد لمثل هذا الإلهام.

(١٠) هيك (١٩٧٧) الفصل الأول. ويشاركه پول تشفارتزناو (١٩٨٢) الرأي ذاته ص ١٢٣: «لم تتم تسمية عيسى في المسيحية الأولى والمرحلة التي سبقتها بالرب. بل إنه من المؤكد أن شخصية عيسى التاريخية ما كانت لتسمح أو تقبل بعملية تأليه لشخصه».

(١١) هيك (١٩٩٤) «التعدد والتنوع الديني والحق في المطلق»، ص ١٤٦.

أما لغة هانز كونج فتبدو أقل خفوتاً ورونقاً، ولكنها تظل حسب رأى أقل من مطالبة لودمان في أن يكون للحقيقة الصادرة في الخلاف الدائر بين الكنيسة والحقيقة. فكونج يعترف من ناحية برب إبراهيم ورب عيسى، وأن عيسى دعا - بوصفه مختاراً من هذا الرب - له باسمه، أى أن عيسى إنسان مميز فريد «اختاره الله وأعطاه قوة مطلقة». أى أن التثليث يتضاءل هنا إلى حد «وحى الله في المسيح من خلال الروح»^(١٢)، ولكن من ناحية أخرى يكتب كونج أن هذا الإنسان الحقيقي عيسى الناصري، وحى الله الحقيقي، هو في لغة أقرب ما تكون للغة الكتاب المقدس هو المسيح، المخلص، صورته وابنه. وتجتمع في المسيح عيسى هذا روح الله، سلطته وقوته. ويتوحد المسيح الإله مع الإنسان، أى الشخصية التاريخية لعيسى الناصري^(١٣). وبهذا يثبت كونج أنه لا يزال الابن الوفي المطيع والتابع لكنيسته وتعاليمها.

ولقد تسلطت أضواء على عنصرى «الصلب» و «القيامة». واكتسبا رؤية جديدة؛ حيث نالت الرؤية القرآنية مساندة من جانب التيار النقدي في علم اللاهوت والذي أثبت أن عملية المحاكمة وتوقيع العقوبة قد كانتا في يوم الجمعة قبل عيد فصح اليهود مباشرة، وأن الكلمات التى تنسب للمسيح وهو على الصليب لا أساس لها من الصحة، وأنها رواية مؤلفة في زمن لاحق لهذا الحدث.

أما الاعتقاد بقيامة المسيح، والتى أصبحت ظاهرة تؤمن بها جماعة المسيحيين بأسرها، فإرها لودمان «رد فعل متسلسل»^(١٤) لا مثيل له.

اعتقد أن هذا العرض الموجز يكفى دليلاً على الأزمة العميقة التى تعيشها علوم اللاهوت المسيحية والمسيحية ذاتها وتعاليمها في العالم المسيحى، والتى يعد إيوجين درفيرمان أخيراً وليس آخرًا أحد مؤشرات البارزة. ويصور القرآن هذا الموقف بدقة شديدة في سورة الشورى الآية ١٤: ﴿وَالَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ شَكَّ مِنْهُ كُفْرٌ﴾.

ولكن من غير المتوقع أن تؤدى هذه الأزمة (حتى الآن) إلى دخول حشود المسيحيين في دين الله كما تبشر سورة النصر بذلك: ﴿وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(١٥)، ولكن بالأحرى ستدفع هذه الأزمة بنهاية المسيحية المرتبطة بالكنيسة التقليدية، وسيؤدى ذلك إلى زيادة شعور الجماهير بالاغتراب عن الدين عامة، وتزيد من رغبة الإنسان الفرد بانتقاء ما يريد ويناسبه من المعروض في سوق الديانات والمعتقدات والتى هى أشبه بالسوبر ماركت.

(١٢) كونج (١٩٨٧).

(١٣) كونج (١٩٨٨) ص ٣٣، ٤٣، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥٤.

(١٤) لودمان (١٩٩٥) ص ٢٢٧.

لا يصل هذا التطور السابق ذكره والذي تشهد علوم اللاهوت المسيحي، إلى مدارك الجموع المؤمنة التي تذهب أيام الآحاد إلى الكنيسة؛ لأن المسيحية تشهد حالة من «الانفصال العميق بين التقوى والورع وبين العلم، أشبه ما تكون بحالة الشيزوفرانيا»^(١٥).

فبالرغم من الزلزال الذي ضرب علم اللاهوت، لا يمكن إلا أن نتوقع استمرار الجموع البسيطة من الكاثوليك في هولندا، وكرواتيا، وأيرلندا، وإسبانيا في المشاركة في المواكب التي تقام إجلالاً وتقديساً «لأم الإله».

يتشابه هذا التطور بما أحدثه كلٌّ من هاينزبرج، وأينشتاين، وماكس بلانك، وبوهر من تحول في بدايات القرن (الماضي) من الفيزياء النيوتنية (نسبة إلى نيوتن) إلى الفيزياء الجديدة. فلقد أدركت العامة نتائج نظريات هؤلاء بعد نصف قرن. في جميع الأحوال، فإن مصداقية الكنيسة أو عدم مصداقيتها يتوقف اليوم على موقفها من علماء اللاهوت الذين يتبعون منهجاً تاريخياً نقدياً، وما توصلوا إليه من نتائج، وعلى إذا ما أفرجت الكنيسة عن هذه النتائج أو اختارت طيها في بئر الكتمان.

وتفتح عملية رفع حالة الألوهية عن عيسى وتخليصه من المسحة الأسطورية والملحمية الباب واسعاً أمام تصالح المسيحية مع غيرها من الديانات والمعتقدات غير المسيحية، وبخاصة الإسلام.

إن النتائج التي تتيحها عملية التصحيح هذه مذهلة؛ لأنه إذا ما توطدت فكرة أن عيسى رسول الله - وهي مكانة عظيمة تحظى لدى المسلمين بتقدير واحترام بالغين - فإن هذا كفيل برأب الصدع بين المسيحيين والمسلمين، ذلك الذي أحدثه المجمع الكنسي في إزنك. إن الأمر لا يتعلق بأن يشعر المسلمون بأنهم على حق عندما تتطور المسيحية لتدرك أن المسيحية المذكورة في القرآن هي الأصل وهي الصحيحة، ولكن إذا حدث هذا فسيكون الإسلام قد أدى رسالته في إصلاح المسيحية وتخليصها مما علق بها من شوائب وتلفيقات، وغاد بها إلى أصلها. وبهذا يكتسب الحوار العالمي فرصاً جديدة ليس على المستوى الإنساني فحسب، بل كذلك على مستوى النظريات؛ لأنه في هذه الحالة لن تصبح مسألة الطبيعة الإلهية لعيسى أحد المحرمات التي لا تمس ولا تناقش كما ذكر هانز كونج. وبهذا سيكون تمسك المسلمين بالمسيحية التي وردت في القرآن لمدة ١٤٠٠ عام قمرى عملاً آتى ثماره، واستحق هذا العناء والمثابرة.

(١٥) لودمان (١٩٩٤م) ص ٢٠٩، ٢١١، (١٩٩٥) ص ٨.

لقد أحدث المنشور البابوي الذى أتى ذكره فى الفصل السابق تغيرًا ملموسًا.

فلم يعد الحديث قائمًا عن هلاك كل من هو خارج الكنيسة. لقد تخلت الكنيسة عن موقفها هذا (لأنجاة خارج الكنيسة)، الذى يعود إلى قرون طويلة. (أما فى المجال العلماني، فيتحول هذا الموقف فى إطار العولمة لصياغة أخرى «لا حضارة خارج الغرب!»).

يتجلى هذا الموقف فى أكثر أشكاله تطرفًا فيما ورد فى المنشور البابوي لعام ١٩٧٩ فى الفقرة ١٤، والتي جاء فيها «إن الإنسان، كل إنسان بلا استثناء، قد نجا من خلال المسيح، وكل إنسان مرتبط بالمسيح بشكل أو بآخر، حتى لو لم يعلم الإنسان هذا».

إن المسلمين وفق هذا القول - وبعبارة رانر - هم مسيحيون بدون أن يعرفوا!!.

إن المسلمين «يردون التحية» لأنفسهم «فكريًا» عندما يُعدُّون عيسى (مثله مثل بقية الرسل) كما ورد فى القرآن مسلمًا بالمعنى الأصلي للكلمة، أى أنه إنسان يسلم نفسه كاملاً لله. فلقد ورد فى سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٦﴾، وكذلك ورد فى سورة البقرة الآية: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣١﴾.

أما مقولة إن المسلمين مسيحيون (بدون أن يعرفوا)، فهي ليست عارية من الصحة تمامًا: إن المسلمين من أكثر الناس احترامًا وإجلالًا ودفاعًا عن مكانة المسيح عيسى ابن مريم وأمه اللذين اصطفاهما الله. وتؤكد هذه الحقيقة عندما يتابع المسلم بدهشة بالغة واستنكار واضح ما يتعرض له كل منهما، أى عيسى ومريم العذراء من تقليل لمكانتهما واحترامهما على يد بعض علماء اللاهوت المسيحيين أمثال رانك، وسول، عندما يتعرضون لشخص المسيح على أنه شكل من أشكال العاملين فى المجال الاجتماعى العام، ولأمه بصفته أمًا غير متزوجة. يتعامل بعض علماء اللاهوت أمثال تشفارتزناو، ووات، ومرة أخرى هيك، مع الموقف الحالى ونتائجه بشكل صريح. يرى هؤلاء أن جميع المحاولات التى تستهدف الحفاظ على صدارة المسيحية - خاصة بعد تنقية صورة عيسى من جميع العناصر الأسطورية والمحمية، وبالتالي المسيحية - ليس لها أدنى أمل فى تحقيق النجاح. يعتقد تشفارتزناو الذى يتحدث عن بداية زمن ما بعد المسيحية، وعن ظهور عناصر دين عالمي، أن عهد المبشرين قد ولى، وأن ساعة عودة البشر لدين الله الواحد قد حانت^(١٦).

(١٦) تشفارتزناو نقلًا عن كيرست، ص ٤٧٨.

يؤمن تشفارتزناو مثله مثل وات^(١٧)، وهيك بأن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام هي في حقيقتها وأصولها ذات مكانة متساوية، كما تتساوى في حقيقتها. ويرى تشفارتزناو أن القرآن بمثابة وحى ورسالة إلهية دينية كونية تصلح للعالم كله، وتتضمن حقيقة رواية عيسى الأصلية. وبالتالي يرى تشفارتزناو أن القرآن يصلح لأن يكون إضافة مفسرة للعهد الجديد.

يتوقع تشفارتزناو للمستقبل أن يتطور الأمر من «توالى موسى وبعده عيسى وبعدهما محمد إلى حالة معية» (أى أن يكونوا معاً).

«سنكون في أواخر الأيام كلنا معاً داخل الإسلام العالمى»^(١٨).

لا يخفى تشفارتزناو مثله مثل هيك اعتقاده أن كافة الديانات رغم مطالبها وأهدافها العالمية وتوجهها للبشر كافة، فهي مرتبطة بالنسيج الثقافى لها، وبالتالي لا تكاد تصلح لتحقيق مثل هذه العالمية التى تصبو إليها. يسمى هيك هذا الأمر «الإثنية الدينية»، التى تدفع بالمؤمنين والتابعين للديانات المختلفة إلى المحاولة التى لا طائل منها لإثبات التفوق الأخلاقى والفكرى لديانتهم على الديانات الأخرى، مع أن الفضيلة والرذيلة موزعتان بشكل قد يكون متساوياً على العالم كافة.

تكاد الديانات كلها أن تشترك في نفس الأهداف، وهى عدم تركيز حياة البشر على الدنيا فقط، بل السمو بها عن طريق تركيزها وتمركزها على الله ووجوده. لا تعنى رؤية الديانات المختلفة للحقيقة النهائية أن إحداها على حق والأخرى على باطل، لكن على العكس، فإن كل الديانات - وفق اقتناع هيك - تشارك في نصيب متساوٍ من الحقيقة الإلهية.

وهذا الموقف يوضحه أكثر ما يوضحه الضوء الذى ينكسر في مناخ الأرض إلى ألوان قوس قزح. وهناك تشبيه آخر لاختلاف الديانات مع اتفاقها في الهدف النهائى، وهى أن الطرق المختلفة تؤدى إلى قمة الجبل نفسه^(١٩).

وانطلاقاً من هذه الخلفية التى تتسم بـ «تعدد النظريات اللاهوتية للديانات» يطالب هيك أتباع الديانات والمذاهب إلى نبذ فكرة التعصب لدينهم ومذهبهم واعتباره طريق النجاة الألوحد والمطلق. ويناشد هيك المسيحيين أن يخطوا الخطوة الحاسمة ويعترفوا بأنه بالإضافة إلى عيسى هناك مخلصون آخرون، وأن هناك رسلاً وأنبياء أوحى إليهم غيره، وأنهم كذلك أصحاب رسالات سماوية^(٢٠).

(١٧) وات (١٩٩٥) ص ٤٣.

(١٨) تشفارتزناو (١٩٨٢) ص ٩، ٢٢، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦.

(١٩) هيك (١٩٩٥) ص ١٠، هيك فى كيرست ص ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٨، ١٤٩، (١٩٨٨).

(٢٠) باومان (١٩٩١) ص ٧.

لا بد أن يلحظ المرء ارتباط تأسيس هذا التعدد الدينى الليبرالى وقبوله، بالفيزياء الجديدة من حيث تاريخ الفكر. فعلم الطبيعة الجديدة التى تقبل بنسبية غير دقيقة تشبه تقبل هيكل للنسبية فى تقييمه للأديان: فالذى يبدو متناقضاً قد يكون كله صحيحاً. يوافق هيكل - كما توافق علوم الطبيعة الحديثة - على ضرورة التفرقة بين الحقيقى والطريقة التى يفهم بها. ويميل هيكل إلى رفض أى تقييم نوعى، إنه يتقبل بطبيعة الأمر أن يتحلى المرء بانحياز إيجابى أو حكم مسبق إيجابى لدينه، ولكنه يرفض أن يكون المرء سئى النية تجاه ديانات الآخرين.

لا يتشابه هذا مع علوم الطبيعة الحديثة فقط، ولكن مع أحدث صيحات الفكر واتجاهاته، بدايات الألفية الثالثة.

الملمح المميز لما بعد الحداثة فى الفلسفة، والتاريخ، وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو نبذ المنظومات الكبيرة والنظريات الشاملة العامة. فبدلاً من الشرح، يحتل الوصف مكان الصدارة، ويتم تفكيك علاقات فكرية إلى مجرد طرق محادثة. فالعلم يتم «تدويره» وتحريكه فى اتجاه ما بعد الحداثة.

فالنص آخر الأمر هو نتاج ما يفعله القارئ به، أى القارئ مؤلفاً!
وكلُّ شئ له الحق فى أن يتمتع بالقدر نفسه من الحماية: كلُّ ما هو صغير، كلُّ ما هو غريب، كل ما تهدده الأغلبية: النساء، والأطفال، ومدمنو المخدرات، والشواذ جنسياً، والنحل الدينية، والحيوانات.

ويمثل رد فعل ما بعد الحداثة على حالة الفقر الفكرى والروحى للحداثة فى مظاهر العصر الجديد، مثل: كشف الغيب، وعلوم إعادة التجسيم، والنحل المسيحية الجديدة الملفقة، والدين المدنى، ونظريات البيئة وأساطير الطبيعة، وغيرها الكثير مما نجده فى السوبر ماركت الدينى المعاصر.

ويستشعر الناس اليوم الخوف من كلِّ ما يتسم بالنظام والقواعد. ففى عصر ما بعد الحداثة يبتعد الناس عن «الموضوعية» كهدف وإمكانية، لدرجة أن الكثيرين ينفون عن العلوم الطبيعية مسألة المعيارية.

فالجوهر الأساسى للأسئلة الفلسفية القديمة مثل: ماذا أستطيع أن أعرف؟ ماذا على أن أفعل؟ ما الذى أستطيع أن أمله؟ كلُّ هذه الأسئلة تطرحها ما بعد الحداثة كتساؤلات، ولكنها لا تبغى من ورائها إجابات. ولكن إذا أصبحت كل مقولة مجرد مادة تأملية، فسيصبح عن

قريب من الفضائل ألا يكون للمرء رأى (no view)، وكذلك لا يحدد لنفسه هدفًا (no goal)، وستصبح كلُّ حماسة دينية وانتفاء عقائدي تطرفًا. هذه النسبية في القيم ستؤدي بطبيعة الحال إلى عدم اتخاذ مواقف، وليس للتسامح وتقبل الآخر (رومان هرتزوج)^(٢١). والنقيض هو الصحيح: تقبل الآخر والحق في وجود أشياء مطلقة متلازمان.

لقد تبين للناس أن «الحلول النهائية» تكمن في منطق الدولة الحديثة. لقد عبر زيجمونت باومان عن اعتقاده بأن ما يهدد الوجود الإنساني ككائن أخلاقي ليس الشهوات ولا الأفكار القديمة ولا الاعتقاد بالخرافات، ولكن ما يهدده حقًا هو العقل، والحضارة، والعلم^(٢٢).

يؤدي الاستغناء عن ضرورة وجود فكرة «الحقيقة» إلى اتجاه نسبي ذي طبيعة عدمية، تؤدي إلى أن يختار المرء أيَّ شيء يريد به بلا تجديد لموقف ثابت^(٢٣).

لكن مرحلة ما بعد الحداثة تتمسك بالإنجازات الرئيسية للحداثة، وهي: فصل الدولة عن الكنسية، والتعدد الفكري، ورواية تاريخية خطية مستقيمة. ميثافيزيقيا ملحدة، رسالة التبشير بالإنسان محور الكون.

- ٤ -

لا يؤدي السؤال عما إذا كان عيسى يوحد البشر أم يفرقهم دورًا مهمًا في مشهد مرحلة ما بعد الحداثة؛ حيث لا تولى الأخيرة أهمية لمثل هذه التساؤلات. ولكن من المهم جدًا للمسلمين أن يعلموا إلى أين تأخذهم هذه المرحلة؟ فمثلاً ما هدف جون هيك بالنسبة للمسلمين؟ إلى أين يريد أن يتوجه بهم؟.

تعتبر الرؤية الإسلامية مرحلة ما بعد الحداثة هذه إحدى النتائج المتأخرة للحداثة والتي تتحمل مسؤولية انتشار الإلحاد، والعلمانية، وفقدان القيم والمعايير، وفقدان الأشياء لمعانيها ومضامينها. إنهارد فعل مأزوم على عالم مرعب لا يمكن -على أقل تقدير منذ الحرب العالمية الثانية - بأي حال السيطرة عليه، لا من خلال مثل وقيم التنوير، ولا حتى بقوة ردع السلاح^(٢٤).

(٢١) منح جائزة السلام الألمانية للأستاذة الدكتور شيميل، فرانكفورت ١٥ / ١٠ / ١٩٩٥ ص ٩.

(٢٢) بومان (١٩٩١).

(٢٣) العطاس (١٩٩٦) ص ٥٠٨.

(٢٤) The Muslims World Book Review, Mansoor لعام ٧ رقم ٢ عام ١٩٨٧، ص ٣. لعام ١٤ رقم ٣ عام ١٩٩٤

يعتقد إيمانويل كلرمان أن الإسلام يكتسب أهميته وقيمته المطلقة مقارنة بالديان الأخرى، فهو يقدم أفضل ما يمكن للدين أن يقدمه^(٢٥).

ولذلك، لا ينبغي لأحد أن تصيبه الدهشة إذا ما رفض العالم الإسلامى أن يشارك في مسألة اللامبالاة بالمعتقدات؛ لأن المخاطر الناجمة عن هذا لا يغفلها العقل. إن هذا الأمر بمثابة كابوس سيؤدى بالعالم إلى طريق مسدود، سيعمل على أن تفقد الأشياء معانيها وقيمتها، سيفقد العالم الأمان، والتراث، والتقوى. لقد عبر أندريه مارلو عام ١٩٦٨ عن هذا حين قال: «إننى أؤمن بأن حضارة الماكينات هذه هى أولى الحضارات بلا قيمة عليا. إن علينا أن ننتظر لنرى هل يمكن لحضارة أن تكون حضارة تطرح مجرد تساؤلات فقط، أو أن تكون حضارة الآن فقط. وهل من الممكن أن تؤسس قيمها على شىء آخر غير الدين لفترة طويلة؟».

لا يعتقد المسلمون أن أزمة القيم والمعنى هذه يمكن التغلب عليها من خلال استدعاء القيم الإنسانية والتوصل إلى اقتناعات مشتركة بين المسيحيين واليهود والمسلمين، والليبراليين، والماركسيين، والملحدين، طالما ظل الإنسان هو معيار ومقياس الأشياء كافة، وهو وحده صاحب الحقوق كافة.

إن التمسك الأعمى بنموذج للتقدم يستند على الفرد الحر لن يؤدى إلا إلى مزيد من الانتكاسات. لذلك فإن قليلاً جداً من المسلمين يولون أهمية لمشروع هانز كونج بإقامة «علم أخلاق عالمي».

لقد كان لكل هذا أثره الواضح في جلسات برلمانات ديانات العالم المنعقدة في جنوب إفريقيا في الفترة من ١ - ٨ ديسمبر عام ١٩٩٩؛ حيث ناشد الحاضرون المؤسسات الرائدة في العالم الحفاظ على الأخلاق. ومن أمثلة النداءات: «لا يصدر عنك فعل لا أخلاقى»، «احترم الحياة»، «إننا نهدف لإقامة عالم تساند فيه التكنولوجيا آدميتنا وتنميتها».

كل هذه المقولات الجميلة التى صيغت بصيغة الأمر ولم تتخط القاعدة الذهبية القديمة «أن تعامل الآخرين كما تحب أن تعامل، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك»^(٢٦)، هى الحصيـلة الأخيرة لما يتبقى، إذا ما عدّنا أن الأخلاق هى التى ستبقى بعد زوال الديانات.

(٢٥) كلرمان: الإسلام، الطبعة الثانية، بازل ١٩٥٦، ص ٣٧٧.

(٢٦) تلك القاعدة الذهبية مشتركة في الأديان الإبراهيمية الثلاثة.

يقول فيشر عن حق: «إن الأخلاق الجديدة لن تستطيع أن تركز على مياه نظيفة في بحر الشمال أو جزر خالية من الأسلحة النووية. ستفقد مصداقيتها إذا ما أعلنت عن نفسها أنها أخلاق بلا هدف للفرقة بين الخير والشر، الحق والباطل»^(٢٧).

لذلك فإنني لا أمل خيرًا في نوايا برلمانات الديانات باستهلال الألفية الجديدة وإقامة حدث عالمي في أيسلندا. وموقفي هذا يسرى كذلك على نية هانز كونج المتمثلة في كتابه «علم لاهوت منظم لديانات العالم»^(٢٨).

إن الإسلام - على النقيض من آراء هيك التي تتسم بملامح مرحلة ما بعد الحداثة - ليس على استعداد للتخلي عن قيمه «الحقيقة» بالرغم من أن على المسلمين أن يتفقوا مع ما قاله الرئيس الإيراني د. محمد خاتمي من أن الدين، وتصورنا عن الدين وفهمنا له، لا يتطابقان بالضرورة^(٢٩). يضرب الإسلام تشبيهًا مجازيًا مقابلًا للضوء الإلهي الذي ينكسر في ألوان قوس قزح، وهو تشبيه الذهب بمعاييرته المختلفة وصولًا إلى أنقى درجاته: ٢٤. ورسالة الإسلام، التوحيد الخالص، أشبه ما يكون بالذهب في أسمى درجات نقائه وخلوه من المعادن الأخرى، أي ذهب عيار ٢٤. ليس هناك درجة أعلى من هذا التوحيد يمكن للمرء أن يتخيلها، وهذه الدرجة غير مرتبطة بثقافة بعينها.

لا يعني هذا أن الإسلام ليس على استعداد لتقبل الديانات الأخرى والتسامح في وجودها، خاصة أن هذا التعدد والتنوع في الديانات مشيئة الله وشأن من شئونه في خلقه، كما ورد في الآية ٤٨ من سورة المائدة. ويتضمن القرآن مبدأ يصلح ليحكم العالم، وهو الوارد في سورة الحج: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآخِرَةِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾^(٣٠).

ما بعد الحداثة يرفض فكرة وجود قيم غير مرتبطة بزمان محدد، أي قيم تعلو فوق الزمن لتصلح لكل زمان. أما الإسلام، فيرى أن التاريخ ما هو إلا حقبة فانية - مثل الحداثة وما بعد الحداثة - لكن الباقي والمستمر تعاليم الله. لذلك أعتقد أن علينا أن نتعامل مع التنوير بشكل مغاير عندما نتحدث عن الإسلام.

(٢٧) فيشر: أخلاق بلا أخلاق FAZ ١٦ / ١١ / ١٩٩٥.

(٢٨) كونج: Die Welt ٦ / ٣ / ١٩٨٩، ص ١٣.

(٢٩) خاتمي. FAZ ٢٦ / ٩ / ١٩٩٨ ص ٣٥.

فلم يأت التنوير بالضوء ليخترق ظلمات التقاليد الإسلامية ونصوصها من قرآن وسنة، بل إن هذه القيم والقواعد من قرآن وسنة هي التي انبعث منها النور والضياء.

يتعامل المسلمون بشك وريبة مع ما بعد الحداثة؛ لأن تسامحها وتقبلها لكل شيء يقلص • ينتهى إذا ما كان هذا الأمر متصلاً بالإسلام.

فالمسلمون لا يتمتعون بأى مزية من مزايا الأقليات في أوروبا الغربية.

فالحداثة وما بعد الحداثة تتعامل مع فوبيا الإسلام وحالة الذعر المرضى منه بنفس الشكل والأسلوب، والمثال الواضح على ذلك هو علم اجتماع الديانات.

فإذا كان الآباء والمؤسسون من أمثال دوركهيم، وفير، وماركس، وسيمل قد انطلقوا في تصوراتهم عن اختفاء منظم للإسلام، فإن خلفاءهم اليوم ممن يروجون لما بعد الحداثة لا يختلفون عنهم؛ حيث لا يظهرون أى تفاهم أو تعاطف أو ود للإسلام. إنهم لا يروجون لشعارات مثل «كنيسة واحدة، إله واحد، وملك واحد»، ولكنهم يرفعون شعارات «ثقافة واحدة، تكنولوجيا واحدة، نظام عالمى واحد».
